مجلة الباحث
موقع المجلة: https://journals.uokerbala.edu.iq/index.php/bjh/

المعنى القرآني عند المفسرين المعاصرين

(دراسة وصفية تحليلية في ضوء تأثير الاتجاهات)

إشراف: أ.د. مكي محيي عيدان الكلابي
جامعة كربلاء – كلية التربية للعلوم الإنسانية
الباحث: م.م موفق هاشم عبيد عجيل الرحال
جامعة كربلاء - كلية العلوم السياحية

التخصص العام للبحث:**اللغة العربية**	التخصص الدقيق للبحث:**اللغة**

معلومات الورقة البحثية

تاريخ الاستلام 2025/4/17
تاريخ القبول 2025/5/22
تاريخ النشر 2025/11/20

الكلمات الرئيسية:

المعنى – التفسير – الاتجاه – المذهب - التلقي

المستخلص باللغة العربية:

يعرض هذا البحث مسألة المعنى القرآني لدى المفسرين المعاصرين، ويبحث في تأثير اتجاهاتهم الدينية والمعرفية في تشكيل هذا المعنى، مبينا ذلك في مبحثين، كان الأول قد خصصه للمعنى القرآني المتأثر بالمذهب الديني، وأثبت فيه أن المسبقات العقدية والمتبنيات الفقهية لدى المفسر حاكمة على النص الديني ولها سلطة كبيرة في صياغة المعنى القرآني على وفق تلك المسبقات، أما المبحث الثاني فقد اشتغل على مسألة تشكيل المعنى القرآني في ضوء مجالات الاشتغال والاهتمام، وبيّن فيه في المطلب الأول كيفية تشكيل المعنى عبر اشتغالات التفسير البياني، وفي المطلب الثاني بيّن فيه تأثير العلوم الطبيعية الحديثة في صياغة المعنى القرآني وتوجيهه بحسب مسارات الاكتشافات العلمية الجديدة.

doi: https://doi.org/10.63797/bjh.

مقدمة

قد يغيب عن بعض الباحثين أن مسألة المعنى المستقى من النص القرآني تخضع كثيرا لجدليات الانتماءات (الإيديولوجية) التي تعمل بوعي من المفسر وربما من دون وعي، وتنقاد بفعل اهتماماته وميوله الثقافية والعصرية، إذ عرض كثير من الدارسين لمعنى النص القرآني في كثير من الأحيان بحسب مسبقاتهم المذهبية في العقيدة والفقه، وبحسب ميولهم الثقافية واتجاهاتهم المعاصرة، وهو ما يعني أن المعنى القرآني في هذه الحيثيات يتحدد بحسب الانتماء الطائفي المذهبي من جانب، ومن جانب آخر يتحدد بحسب مجالات الاشتغال والعمل وميادين الاهتمام.

وبناء على ما سبق ارتأى هذا البحث أن يقف على أثر الاتجاهات في عملية تشكيل المعنى عند متلقي النص القرآني، لمعرفة مدى ذلك التأثير وكيفية حصوله عند المفسرين، وسيعرض ههنا مبحثان: الأول يدرس كيفية تشكل المعنى القرآني عند المفسرين من طريق تأثّرهم بمسبقاتهم الدينية في العقيدة والفقه، ويتم في هذا البحث الاشتغال على مطلبين، واحد منهما يتكفل بالبحث عن تأثير العقائد الدينية التي تحدد عملية التفسير لتنتج معاني تلائم تلك العقائد، والمطلب الثاني يتكفل ببيان تأثير المذاهب الفقهية في عملية تشكيل المعاني القرآنية وجعلها تتماشى معها إلى حد التطابق.

أما المبحث الثاني فيعرض لعملية تشكيل المعاني القرآنية على وفق مسارات التخصص ومجالات الاهتمام، ويعرض هذا المبحث في مطلبين أيضا، الأول خاص بالكشف عن المعنى القرآني بحسب التفسير البياني، والمطلب الثاني يعرض لتشكيل المعنى القرآني في ضوء التفسير العلمي.

تمهيد

شكّلت مسألة المعنى الهدف الرئيس والمقصود ضمن دائرة الاهتمامات اللغوية في بداياتها، متجسدة في ظهور المعاجم اللغوية والمؤلفات القرآنية التي اهتمت بالصبغة اللغوية لمفردات القرآن وبيانها، ولم يتوقف الاهتمام بالمعنى من قبل علماء العربية ومفسري مفردات القرآن فحسب، بل شكّل المعنى – فيما بعد – مقصدا رئيسا للمناطقة والفلاسفة والفقهاء والأصوليين، وهو يمثّل بؤرة العملية التواصلية بين الطرفين: المتكلم والمتلقي، وإذا انكشف المعنى تتحقق حينئذ عملية الفهم بشكل سليم، وتكتمل عملية التواصل اللغوي بشكل ناجع وناجح.

وأول الدراسات اللغوية العربية كانت دراسات معجمية، وهي مسألة دلالية معنوية في حقيقتها، أما النحو فقد رتبت قواعده بحسب المعنى وعرّفوه بالقول: ((النحو الإبانة عن المعاني بالألفاظ))[1]، وأيضا

عرّفوا الصرف انطلاقا من مسألة المعنى فقالوا عنه: ((هو تحويل الأصل الواحد إلى أمثلة مختلفة، لمعان مقصودة، لا تحصل إلا بها، كاسمي الفاعل والمفعول، والتثنية والجمع، إلى غير ذلك))[2]، والشيء نفسه نجده كذلك في البلاغة التي أخذت بنظر الاعتبار أهمية المعنى فعرّفوها: ((والبلاغة إنما هي إنهاء المعنى في القلب))[3]، وإن كانت هنالك جدلية حول ترجيح اللفظ أو المعنى في الدراسات اللغوية العربية، فلا جدال عند الأصوليين والمناطقة بترجيح المعنى وجعله بؤرة الدرس في المباحث التي لها علاقة باللغة.

يقول الدكتور كمال بشر: ((يمثّل المعنى في الدراسات اللغوية اليوم نقطة أساسية من نقاط البحث، بل إن أستاذنا فيرث جعله أساس هذه الدراسات كلها وهدفها الأول))[4]، وهو كذلك يمثل نقطة التقابل بين أنواع علم المعنى الثلاثة، وهي علم المعنى اللغوي، وعلم المعنى الفلسفي، وعلم المعنى العام[5].

المعنى في اللغة: ذكر الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت170هـ) في عينه أن ((معنى كل شيء: مِحنتُه وحالُه الذي يصير إليه أمره))[6]، ويحصر الدكتور فريد عوض أهم ما يظهر من مفردة (المعنى) لغة فيما يأتي: ((1. المراد من الكلام والقصد منه. 2. مفهوم الكلام وما يقتضيه من دلالة. 3. أن المعنى خفي يدرك بالقلب أو العقل، وأنه شيء غير اللفظ لأنَّ اللسان ليس له فيه حظ))[7].

المعنى في الاصطلاح: يُعرّف المعنى في الاصطلاح على أنه ((الصورة الذهنية من حيث إنه وضع بإزائها اللفظ، أي من حيث إنها تقصد من اللفظ))[8]، ويرى الشريف الجرجاني (ت816هـ) أن المعنى ((ما يُقصد بشيء))[9]، وهذا يدلّ على أن هنالك تساوقا بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي[10].

وقد تنوّعت الآراء في موضوع المعنى بحسب تنوّع الميادين والأهداف والمناهج، ((فمنها ما تجعل المعنى فقط ما تضمنه الملفوظ، ومنها ما تجعله في قصد المتكلم، ومنها ما تجعله بين تأويلات المتلقي))[11]، يُضاف إلى ذلك فإن حدوث المعنى لم ينحصر في اللفظ فقط، ((فالوحدات الكلامية للغة الطبيعية ليست مجرد سلسلة أو خيوطا من صنع الكلمات، فهنالك مكوّن لا كلامي يفرض دائما بالضرورة فوق المكون الكلامي في كل وحدة كلامية محكية))[12]، فثمة عوامل ليست لغوية تشترك في عملية صياغة المعنى وتحديد أبعاده، وأبرز تلك العوامل طرفا الخطاب وما بينهما من علاقات، وما يحيط بعملية الكلام من ملابسات وظروف، يُضاف إلى ذلك المقامات الفكرية والثقافية وصولا إلى الأفق الحضاري العام، وبهذا المستوى ((تبدأ فكرة المعنى بمحاولة الاتصال بالقراءة بوصفها آلة تفكيك المعنى))[13].

ولابد من بيان أن الاتجاه يُعنى بمسبقات المفسّر واهتماماته، ويُعرّف على أنه ((تأثير الاعتقادات الدينية، والكلامية، والاتجاهات العصرية وأساليب كتابة التفسير، والتي تتكوّن على أساس عقائد واحتياجات

وذوق وتخصص المفسّر))[14]، وظهرت الاتجاهات في التفسير أولا مع ظهور المذاهب الكلامية في القرن الثاني الهجري، فكانت المعتزلة تفسّر القرآن بحسب توجهاتها العقدية وكذا الأشاعرة وأهل الحديث وغيرهم من فرق المسلمين الكلامية[15].

واشتغل كثير من المفسّرين المعاصرين على وفق منهجية شاملة ورؤية عامة، لم تقتصر على منهج واحد أو اتّجاه محدّد، لذلك اتّسمت تلك التفاسير بالعموم والشمولية، وهذه سمة غالبة لدى كثير من المفسرين، أنتجت لنا ما يمكن أن ننعتها بالتفاسير العامة، وهذه التفاسير وإن كانت شاملة عامة إلّا أن بعضها اهتم بجانب ما أكثر من اهتمامها بغيره، كما هو الحال في التفاسير العامة التي ركّز أصحابها على أحد الجوانب العصرية في العلم والتربية والاجتماع وسوى ذلك، في حين أخذت بعض التفاسير على عاتقها أن تهتم بجانب واحد من التفسير فقط دون الاكتراث بالجوانب الأخرى، كما هو في التفسير العلمي والاجتماعي والأدبي (البياني والبنائي) والسياسي وغير ذلك.

المبحث الأول

المعنى القرآني المتأثر بالمذهب الديني

يتحدث هذا المبحث عن التأثيرات الدينية المسبقة في كشف المعنى القرآني، تلك المسبقات التي تحدد أو تقود عملية القراءة لتجعل ذلك المعنى متوائما مع المسلك المذهبي للمفسّر أو القارئ للنص القرآني، ولو تفحصنا تفسيرات المعاصرين لمعاني القرآن لوجدناها موجهة بحسب ما يحمله من انتماء مذهبي سواء أ كان عقديا أم فقهيا، ومن هنا ارتأى البحث أن يستعرض هذا المبحث بنقطتين، هما:

أولا: المعنى القرآني المتأثر بالانتماء العقدي

يستطيع البحث أن يدّعي أن الانتماء العقدي هو الحاكم الأكبر على توجيه المعنى القرآني، ومن ثمّ هو المسيطر على مسارات الاشتغال التفسيري، والخلاف العقدي حافل بتفسير الآيات المتعلقة بذلك على وفق مقبوليات المفسرين العقدية في الإلهيات والنبوة والإمامة وما إلى ذلك، وتشكّل العقائد أساسا في التمييز بين الفرق والطوائف الإسلامية، التي تكوّنت في بادئ الأمر بسبب الخلافين: السياسي والكلامي، كما في مسألة الإمامة التي بدأت أولا على شكل خلاف سياسي أخذ منحىً عقديا لاحقا! أو مسألة خلق القرآن التي ابتدأت مسألة كلامية ثم صارت خلافا سياسيا، وهذه الخلافات لم تنحصر في مجاليها: السياسي أو الفكري، بل اتخذت أسلوبا حربيا عجّ بالصراعات والحروب، فأثمر مقاتلَ عظيمة سالت بها دماء غزيرة، وأنتج تراثا

متخما بالأحقاد والكراهية والضغائن، تراث طائفي ومذهبي يرى أصحابه المتطرفون أنهم هم الحق والحق هم، وغيرهم ضال مُضل ومنحرف عن الصراط المستقيم!

ولقد شطّ الدكتور الرومي كثيرا عندما جعل لكل فرقة إسلامية مذهبا في التفسير! فادعى منهجا لأهل السنة والجماعة وآخرَ للشيعة وثالثا للأباضية ورابعا للصوفية[16]، ولن تجد فرقة إلّا وأخذت بالمناهج التفسيرية (اللغوي والنقلي والعقلي والإشاري) مع اختلافٍ في الاتجاهات، ولو نَسب لكل فرقة اتجاها لكان أنسب له وأقرب إلى المنطق العلمي.

ولو تأملنا في نتاجات المفسرين المعاصرين فيما يتعلّق بتفسيرهم للآيات العقدية سنجد المعنى القرآني خاضعا لانتماءاتهم المذهبية في علم الكلام، وعلم الكلام علم يُعنى بدراسة عقائد الفرق الإسلامية في الإلهيات والنبوة والإمامة والقضاء والقدر وما إلى ذلك، فكل فرقة إسلامية لها تفسير خاص يؤدي إلى معان لا تتطابق مع ما لدى غيرها من الفرق في ذلك، وقد تنتهي تفاسيرهم للآيات الإلهية إلى نتائج متقاربة وإن لم تتطابق، مثلا قوله تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ طه:5، قال الشيخ السلفي عبد العزيز بن باز: ((فسره علماء السنة بأنه العلو والارتفاع، يعني: ارتفع فوق العرش وعلا فوقه سبحانه وتعالى بدون كيف))[17]، ويوافقه الشيخ الصابوني الذي يقول: ((هو الرحمن الذي استوى على عرشه استواءً يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيلٍ ولا تحريف كما هو مذهب السلف))[18]، وفي هذه الآية ينتصر الصابوني لمعتقده الخاص بالإلهيات، الذي يتّبع فيه أهل الحديث والسلفيّة الذين ينسبون أنفسهم إلى أهل السنّة والجماعة، بل جعلوا أنفسهم ممثلين وحيدين لأهل السنة والجماعة! وكل من خالفهم خارج عن هذا التوصيف! وهذا مذهب جماعة السلفية المعاصرين، الذين هم امتداد لجماعة أهل الحديث الذين عطلوا عقولهم في المسائل العقدية واتكأوا على الحديث فحسب، وهؤلاء لا يقبلون الآراء التي لا تستند إلى منطقهم هذا!! في حين توجد آراء كثيرة تخالفهم فيما ذهبوا إليه من معان لآيات العقيدة، كما هو عند الأشاعرة والماتريدية وغيرهم من المعاصرين، قال الشيخ وهبة الزحيلي: ((ويرى الخلف تأويل الصفات فيراد بالاستواء: الاستيلاء والقهر والتصرّف الكامل))[19]، فهؤلاء المفسرون يثبتون الاستواء انقيادا للنص وينفون الكيفية والوصف عنه سبحانه، وكما قال ابن حنبكة الميداني: ((وقد وصف الله نفسه بأنه استوى على العرش [...] فنحن نثبته ضمن حدود ما أثبته لنفسه جل جلاله وعظم سلطانه، وهو استواء يليق بذاته سبحانه عما وصفه به الواصفون))[20].

وهذا يعني أن مفسري أهل السنّة والجماعة ليسوا على مسار واحد في قراءة النصوص الدينية المتعلقة بالإلهيات، فمنهم من يقترب إلى حد ما من الرؤية أو القراءة الشيعية لمعنى الآية التي يختزلها العلّامة

المفسّر الشيخ جعفر السبحاني بقوله: ((والذي نركز عليه هو أن الاستواء في الآية ليس ظاهرا في معنى الجلوس والاعتماد على الشيء، بل المراد هو الاستيلاء والتمكن التام، كناية عن سعة قدرته وتدبيره))[21]، وكذلك المفسر الشيخ مكارم الشيرازي الذي يقول: ((وأساسا فإن عبارة ﴿استوى على العرش﴾ كناية عن سيطرة حاكم من الحكام على أمور بلده [...] وعلى هذا تكون عبارة ﴿استوى على العرش﴾ كناية عن الإحاطة الكاملة لله تعالى وسيطرته على تدبير أمور الكون – سماء وأرضا – بعد خلقها))[22].

ويتّضح مما سبق أن المفسرين المعاصرين تتحكم بهم خلفياتهم العقدية في قراءة النص الديني المتصل بالإلهيات، فالسلفية يتكئون على ظاهر النص في بيان المعاني خلافا للشيعة الإمامية الذي يعتدون على العقل في ذلك، لذلك يلتجئون إلى تأويل النصوص وكشف معانيها بما يتماشى مع قوانين العربية في المجازات والاستعارات والكنايات وهلم جرا، أما الأشاعرة وأضرابهم فقد وقفوا موقفا وسطا، فالاستواء على العرش عندهم حاصل ولكن بلا كيف!

ولكن أكثر الخلاف في المعنى القرآني بين المفسرين المعاصرين بحسب الانتماء العقدي يكون في مسألة الإمامة التي أشارت لها بعض الآيات القرآنية، فهي أساس الخلاف بين الفرق والطوائف، وهي المسألة التي سالت بسببها الدماء وأُزهقت من أجلها الأرواح في العصر الإسلامي الأول، وانقسم بسببها جيل الصحابة إلى طائفتين، إحداهما ترى الإمامة اختيارا وشورى من الأمة، وأخرى تراها تعيينا من الله ورسوله، كل هذا ألقى بظلاله على تفسير النص القرآني الحاكي عن الإمامة وسماتها بحسب متبنّيات مسبقة.

ففي معنى الآية المباركة: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾ المائدة: 55، يقول الشيخ وهبة الزحيلي: ((﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ**﴾ أي إنما ناصركم ومعينكم على طريق الأصالة والحقيقة هو الله. وأما ولاية من عداه فهي على سبيل التبع والظاهر. ﴿**وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾ خاشعون وخاضعون))[23]، وإلى ذات المعنى ذهب الشيخ جابر بن موسى أبو بكر الجزائري في تفسيره للآية[24]، وابن عثيمين[25]، وكذلك المفسر محمد علي طه الدرة الذي جعل معنى (الذين آمنوا) ومقصوده في الآية بقوله: ((﴿**والذين آمنوا**﴾: المراد بهم صحابة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون، الذين وصفوا بإقامة الصّلاة، وإيتاء الزكاة [...] ﴿**راكعون**﴾: خاشعون، متواضعون في صلاتهم، وأفرد الرّكوع بالذّكر مع كونه داخلا في الصّلاة تنويها بشأنه))[26]، لكنه وفي ذات الصفحة يورد سبب نزولها قائلا: ((نزلت الآية الكريمة في حقّ عليّ بن أبي طالب–رضي الله عنه–حين سأله سائل، وهو راكع

في صلاته، فطرح له خاتمه، كأنّه كان واسعا، غير محتاج في إخراجه من يده إلى عمل كثير يؤدّي إلى فساد الصّلاة))[27].

أما التفسير الشيعي فيرى أن معنى الآية يدل على أن المقصود من (الذين آمنوا) هو علي والأئمة من ذريته بحسب المذهب الإمامي، يقول الشيخ مكارم الشيرازي: ((يتضح لنا أن المراد من كلمة "ولي" في هذه الآية، هو ولاية الأمر والإشراف وحق التصرف والزعامة المادية والمعنوية، خاصة وقد جاءت مقترنة مع ولاية النبي "صلى الله عليه وآله وسلم" وولاية الله حيث جاءت الولايات الثلاث في جملة واحدة. وبهذه الصورة فإن الآية تعتبر نصا قرآنيا يدل على ولاية وإمامة علي بن أبي طالب "عليه السلام" للمسلمين))[28]، ويفصّل الشيخ السبحاني في الآية ليثبت اتجاهه العقدي في الولاية فقال: ((فالمقام بحاجة إلى مزيد توضيح يجسّد الولي ويحصره في شخص خاص لا يشمل غيره، ولأجل ذلك قيّده بالسمة الرابعة أعني قوله ﴿**وَهُمْ رَاكِعُوْن**﴾، وهي جملة حالية لفاعل ﴿**يؤتون**﴾ وهو العامل فيها. وعند ذلك انحصر في شخص خاص على ما ورد في الروايات المتضافرة))[29]، وهنا يوجه الشيخ الإعراب بما يخدم مسبقاته العقدية في مسألة الإمامة وإثبات واقع تاريخي لحادثة جدلية بين طائفتي الإسلام الكبريين: (السنة والشيعة)، إذ ترى الطائفة الأولى (أهل السنة والجماعة) دلالة غير محددة في مفردة (وليّ)، بينما الشيعة يرون فيها تعيينا بشخص واحد وهو علي ابن أبي طالب، وهذا الخلاف ألقى بظلاله على التوجيه النحوي عند كل طرف، ومن ذلك إعراب ﴿**وهم راكعون**﴾ وهل هي جملة حالية وسمة رابعة تقيّد وتحدد (الولي) كما يذهب الشيخ السبحاني وأصحابه الشيعة أم هي ليست كذلك كما يذهب أصحاب الطائفة الأولى؟ وإن كان بعضهم يعربها حالا لكنهم يوجهونها بما يخدهم مسارهم العقدي المخالف للطائفة الثانية في تحديد من هو الولي وما هي وظيفته، عبر جعل معنى (وهم راكعون) معنى مجازيا، فهي ((جملة حالية من فاعل الفعلين اللذين قبله، والمراد بالركوع الخشوع والخضوع؛ أي: يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم خاشعون خاضعون لا يتكبرون. وقيل: هو حال من فاعل الزكاة والمراد بالركوع هو المعنى المذكور؛ أي: يضعون الزكاة في مواضعها غير متكبرين على الفقراء ولا مترفعين عليهم))[30]، فبالحالين سواء كان حالا لفاعل الفعلين اللذين قبله أم حالا لفاعل الزكاة فهو ليس سمة رابعة تحدد من هو الولي، وهذا يعني أن المنهج اللغوي في تفسير النص القرآني غير كاف في كشف المعنى عند المفسرين عموما، فهم أسارى لسوابقهم العقدية والمذهبية، وهي من توجههم في قراءة المعنى القرآني، وهو ما يعني أنهم مفسرون ايديولوجيون محكومون باتجاهات مركوزة في أذهانهم مسبقا.

ثانيا: المعنى القرآني المتأثر بالانتماء الفقهي

ذهب أستاذ الدراسات القرآنية الدكتور فهد بن عبد الرحمن الرومي بعيدا عندما عدّ التفسير الفقهي منهجا مستقلا بذاته[31]، فهو لا يعدو أن يكون اتجاها من الاتجاهات، نعم يمكن لنا عدّه من جانب آخر فرعا للمنهج النقلي، إذ يتّكئ على الروايات ونقل التراث في الكشف عن المعنى القرآني.

يسلط البحث في هذه النقطة الضوء على أثر الانتماء الفقهي في تشكيل المعنى القرآني، وميدان هذا يتحدد بآيات الأحكام في العبادات والمعاملات، وكان للمفسرين المعاصرين انقياد واضح بمسبقاتهم الفقهية وتأثيرها على قراءاتهم للمعاني القرآنية، ففي آية الوضوء يوجهها كل منهم بحسب متبناه المذهبي الفقهي فيما يتعلّق بمسألة مسح الأرجل، يقول الشيخ متولي الشعراوي: ((ويقول الحق من بعد الأمر بمسح الرأس: "وأرجلكم". وكان سياق النص يقتضي كسر اللام في "أرجلكم" ولكن الحق جاء بالأرجل معطوفة على غسل الوجه واليدين. وغير معطوفة على "برؤوسكم" وهذا يعني أن الرِجْلَين لا تدخلان في حيز المسح؛ إنما تدخلان في حيز الغسل))[32]، وهذا توجيه بلا مرجح لغوي أو قرآني، حتى الحركة الإعرابية وهي فتح اللام في (أرجلَكم) لا تدل على أنها معطوفة على الغسل فقط، فربما تدل على أنها معطوفة على محل الجار والمجرور (برؤوسكم) معا، وإذا دخل الاحتمال بطل الاستدلال، وهذا يعني أن كلامه الذي قال فيه: ((ونبه الحق بالحركة الإعرابية على أنها ليست معطوفة على الجزء المصرح بمسحه، ولكنَّها معطوفة على الأعضاء المطلوب غسلها. ولم يأت الحق بالممسوح في جانب والمغسول في جانب ليدل على أن الترتيب في هذه الأركان أمر تعبدي وإلا لجاء بالمغسول معا والممسوح معا، ويحدد الحق أيضا غسل الرجلين إلى الكعبين: ﴿**وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الكعبين**﴾ والرجل تطلق على القدم، وتطلق على القدم والساق إلى أصل الفخذ. ويريد سبحانه غسل الرجلين محدودا إلى الكعبين))[33]، كلام غير منطقي لغة وعقلا ولا اعتبار له.

ويرى ابن عثيمين أن القول بجر (وأرجُلِكم) على سبيل المجاورة مشكل، فوجد في رأي ابن تيمية سبيلا أنسب مع مرجعياته الفقهية المسبقة في قراءة هذا النص القرآني، إذ وجه القراءتين معا بما يتماشى مع جزئيتين فقهيتين في مذهبه، فقال: ((إن الله قال: "وأرجلَكم" بالفتح و"أرجلِكم" بالكسر لأن للرِّجل حالين: حالًا تكون فيها مكشوفة ففرضها الغسل، وحالًا تكون فيها مستورة ففرضها المسح))[34]، فابن عثيمين وشيخه ابن تيمية لم يكتفيا بتوجيه قراءة الفتح فقط، بل راحا يوجّها قراءة الكسر أيضا بما يتماشى مع انتمائهما المذهبي في الفقه! مثلما هو متبنّى عندهم في الفقه في مسائل الوضوء، وهو غسل الأرجل، أو مسحها عندما تكون مستورة بجوارب أو أحذية أو ما شاكل ذلك، وهذا تكلّف في قراءة هذا النص وتمحّل في كشف معناه؛ لأنه يجانب نظام الدلالة ويبتعد عن قواعد المنطق اللغوي المتبع.

ولم أجد في المدونات العربية النحوية من يجيز الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بجملة أجنبية، ولم أجد استعمالا عربيا كهذا أو قريب منه، وهو ما يعني أن معنى الآية بحسب القراءة (السنية) بعيد عن المنطق اللغوي العربي، ومن ثم فإن توجيه مفسري أهل السنة والجماعة للنص القرآني إنما هو توجيه مذهبي واضح، ويؤيد هذا القول ما أورده العلامة السيوطي (ت911هـ) من رواية تنبئ عن اختلاف معنى الآية من توجيههم لها، وأن ما تبنوه من مدلول ليس نابعا من لغة الآية، وإنما هو نابع من عامل غير منتمٍ للبنية اللغوية الخاصة بهذا النص القرآني ولا علاقة له بها، وهذا العامل الذي وجه بهذا التوجيه هو السنّة المنقولة عبر عدد من الوسائط الرجالية، أي نقل أشخاص عن أشخاص عن آخرين وهكذا! إذ يقول السيوطي: ((وَأخرج عبد بن حميد عَن الْأَعْمَش والنحاس عَن الشّعبِيّ قَالَ: نزل الْقُرْآن بِالْمَسْحِ وَجَرت السُّنة بِالْغسْلِ [...] وَأخرج ابْن جرير عَن أنس قَالَ: نزل الْقُرْآن بِالْمَسْحِ وَالسّنة بِالْغسْلِ))[35]، وهذا توجيه يقع في سياق حاكمية السنة على القرآن! إضافة إلى أن مصطلح (أهل السنة) في ظهوره وحد ذاته يشي بذلك!

ويختلف الفقه الإمامي الاثنا عشري في قراءة معنى النص القرآني عبر توجيهات نحوية تلائم المعنى المراد، يقول المفسر الشيعي الشيخ جعفر السبحاني: ((وقد ذكر علماء العربية أن العطف من حقه أن يكون على الأقرب دون الأبعد، وهذا هو الأصل والعدول عنه يحتاج إلى قرينة موجودة في الكلام، وإلا ربما يوجب اللبس واشتباه المراد بغيره))[36]، وقال في موضع آخر: ((إن اختلاف القرّاء في لفظة: ﴿**وأرجلكم**﴾ بالفتح والجر لا يؤثر في دلالة الآية على وجوب المسح، فالقراءتان تنطبقان على ذلك القول بلا أي إشكال))[37]، بل وجود قراءة بالجر دليل على أن العطف إنما هو على المسح لا على الغسل، أمّا قراءة النصب ففيها أن المفردة معطوفة على محل ﴿**برؤسكم**﴾ الذي هو منصوب على المفعولية، وهذا العطف شائع في الاستعمال اللغوي العربي، ووارد في القران كذلك، كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ بَرِيْءٌ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ وَرَسُوْلُه**﴾ التوبة: 3، فقراءة ﴿**ورسوله**﴾ بالضم هي القراءة الشائعة، وتوجيه هذه الحالة أن المفردة معطوفة على محل لفظ الجلالة المنصوب بـ (إن) وهو محل الابتداء[38]. وإلى المعنى ذاته يذهب الشيخ مكارم الشيرازي إذ يقول: ((إن اقتران عبارة "أرجلكم" بعبارة "رؤوسكم" دليل على أن الأرجل يجب أن تمسح هي – أيضا – لا أن تغسل، وما فتح اللام في "أرجلكم" إلا لأنها معطوفة محلا على "رؤوسكم" وليست معطوفة على "وجوهكم"))[39].

ويستنتج البحث من الخلاف المذهبي في آية الوضوء أن توجيهات مفسري الإمامية أقرب إلى ضوابط اللغة من توجيهات مفسري أهل السنة، لكن وإن كانت اللغة تنتصر لمفسري الإمامية إلّا أنهم في واقع الأمر منقادون إلى مسبقاتهم المذهبية وإن تظاهر بعضهم بعدم تأثرهم بها، والأمثلة على ذلك كثيرة جدا،

وعلى سبيل المثال تفسيرهم لآية التطهير التي حصروها بأصحاب الكساء الخمسة متعكزين على الروايات والأحاديث! وتنكروا للسياق الذي يتحدث عن زوجات النبي الأكرم (ص)، وأفرغوا مصطلح أهل البيت من معناه اللغوي العرفي ووجهوه إلى مسار آخر يمكن أن نسمّيه مسارا شرعيا، فضيّقوه وحصروه بأهل الكساء أصالة ثم أضافوا إليهم الأئمة التسعة الباقين تبعا، هذا بغض النظر عن مدى شرعية ذلك من عدمه.

ومن الاختلافات المذهبية الفقهية التي ألقت بظلالها على قراءة النص القرآني وكشف معناه قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ**﴾، مثلا يقول الشيخ محمد الأمين الهرري الشافعي: ((﴿**ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ**﴾؛ أي: ثم بعد تبين الفجر الصادق أتموا الصيام والإمساك عن المفطرات في جميع النهار إلى دخول أول الليل بغروب الشمس، وهذا أمر إيجابٍ في صوم الفرض، وبيان لآخر وقت الصوم، ولإخراج الليل عنه، فينتفي صوم الوصال))[40]، إذ يرى أن وقت الصيام ينتهي بمجرد غياب قرص الشمس، فالليل يبدأ لديه مع انتهاء النهار المقيّد بغياب الشمس، وهو ههنا قد انقاد تماما لما قرّ من مسبقات مذهبية في عقليته التي لم تشط عمّا تعارف عليه أبناء طائفته في هذه الجزئية، أما الشيخ الشعراوي فيطرح تساؤلا ويجيب عليه معللا، فيقول: ((فهل يدخل الليل في الصيام؟ لا، لأننا لو أدخلنا الليل في الصوم لصار في الصيام وصالٌ أي نصل الليل بالنهار صائمين. إذن فمع "إلى" تجد الغاية تدخل مرة، وتجدها لا تدخل مرة أخرى. واختلف بعض العلماء حول المرفق هل يدخل في الغسل أو لا؟ وصار في عموم الاتفاق أن يدخل المرفق في الغسل احتياطيا؛ لأن أحداً لا يستطيع تحديد المرفق من أين وإلى أين. ونعرف أن هناك احتياطات للتعقل، فمرة نحتاط بالاتساع ومرة نحتاط بالتضييق))[41]، وفي تحديد غاية الصوم لم يستند الشيخ الشعراوي في كشف ما عناه النص على حرف الجر "إلى"، فهو قد ذكر أن الغاية معه تدخل مرة وأخرى لا تدخل، وأورد الخلاف كذلك مع مسألة تحديد المرفق في الوضوء وعموم الاتفاق على إدخاله في الغسل على وجه الاحتياط الفقهي الشرعي المبرء للذمة، لكن هنا يبرز سؤال مهم، وهو: لماذا لم يُعمل بالاحتياط في هذا المورد كما عُمل به في مسألة غسل المرفق؟! أليس من المنطق العقلي البشري أن الأمثال فيما يجوز ولا يجوز واحد؟! يُضاف إلى ذلك أن بدء الصيام يسبق شروق الشمس بوقت يبلغ مقداره أضعاف الوقت المحصور بين غروبها وذهاب الحمرة المشرقية!

ولم يتطرق المفسّر الإمامي مكارم الشيرازي في تفسيره إلى تحديد وقت الليل في بيان معنى الآية، إذ اكتفى بالقول: ((هذه الجملة تأكيد على حظر الأكل والشرب والنكاح في أيام شهر رمضان للصائمين، وتشير إلى أن الحظر يبدأ من طلوع الفجر وينتهي عند الليل))[42]، ويبدو أن الشيخ الشيرازي أرجأ مسألة تحديد الليل إلى المدونات الفقهية التي تغطي المسألة وتشرح جميع حيثياتها، وفي هذه الجزئية لم يتكلف

مفسرو الإمامية في جعلها دليلا على وقت الفطار وصلاة المغرب، بل أخذوا ذلك من حيثيات أخرى ولا سيما الروايات والأحاديث.

وبناء على ما سبق يمكن القول إنّ المفسرين المعاصرين ظلّوا كأسلافهم أوفياء لاتجاهاتهم العقدية والفقهية، لذلك قرأوا المعنى القرآني وفهموه في ضوء مقبولياتهم المذهبية في العقيدة والفقه بمعزل عن المنهج الذي اتخذوه سبيلا وساروا عليه.

المبحث الثاني

المعنى القرآني عَبْر مجالات الاشتغال والاهتمام

برزت تفسيرات للقرآن الكريم تعنى بمجالات محددة، نابعة من اختصاص المفسّر في العلوم الأدبية أو العلوم الاجتماعية والتربوية أو العلوم الطبيعية، وبناء على ذلك سيعرض هذا المبحث للمعنى القرآني عند المفسرين المعاصرين بنقطتين، وهما بحسب الآتي:

أولا: المعنى القرآني من طريق التفسير البياني

التفسير البياني تفسير ليس بجديد، إذ إن ملامحه الأولى قديمة تمتد إلى عصر الإسلام الأول مع النبي محمد (ص)، فهنالك تلميحات بيانية قرآنية عديدة وصلتنا عن ذلك العصر كقصة الوليد بن المغيرة وغيرها[43]، والتفسير البياني بشكله اليوم ((نمط بديع بين التفاسير، إذ لا يماثل شيئا مما أُلف في القرون الماضية من زمن الطبري إلى العصر الأخير الذي عرف فيه تفسير الإمام عبده وتفسير المراغي))[44].

وعرّف الدكتور فاضل السامرائي التفسير البياني بقوله: ((هو التفسير الذي يبيّن أسرار التركيب في التعبير القرآني، فهو جزء من التفسير العام تنصب فيه العناية على بيان أسرار التعبير من الناحية الفنية كالتقديم والتأخير والذكر والحذف واختيار لفظة على أخرى وما إلى ذلك مما يتعلق بأحوال التعبير))[45].

ويرى السيد محمد المصطفوي وهو الباحث في تاريخ التفسير ومناهجه واتجاهاته أن ((الجميع يشترك في جعل "المنطق البياني اللغوي" أساسا في التعامل مع النص، والآيات القرآنية))[46]. ويقوم هذا الاتجاه التفسيري على استخلاص الدلالة القرآنية من طريق استقراء استعمالات اللفظ أو الجملة الواردة في القرآن وتدبر صيغه وأشكاله وسياقاته وما إلى ذلك[47]. وهو ما يعني أن هذا النمط من التفسير ينتمي بشكل ما إلى تفسير القرآن بالقرآن، فهو كما قال الشيخ السبحاني: ((فهذا النمط لا يشابه التفاسير السابقة، غير أنه لون من التفسير الموضوعي أولا، وتفسير القرآن بالقرآن ثانيا))[48]، وفي ذات الوقت هو تفسير يتعكّز على

ضوابط اللغة العربية في النحو والصرف والبلاغة، أي أن التفسير البياني يتداخل مع أكثر من منهج، بل يمكن عدّه أحد أفرع المنهج اللغوي وفي الوقت ذاته هو أحد أفرع منهج تفسير القرآن بالقرآن، وهو من حيثية أخرى اتجاه تفسيري بلحاظ مجال اشتغال المفسّر البياني واهتمامه البلاغي.

وللمفسرين المعاصرين اشتغالات بيانية قرآنية ضمن تفاسيرهم الشاملة، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿**أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ**﴾ البينة: 7. نجد الشيخ مكارم الشيرازي يقول: ((البريّة من مادة "برْ"، وتعني: الخلق، ومن "البري" بمعنى التراب، ومن "بريت القلم"؛ نظرا لأن المخلوقات تأتي إلى الوجود بأمر الله على أشكال مختلفة من حيث الهيئة والقامة، كأنهم يشبّهون الأقلام المبراة في مصنع الخلق، فيقال: لهم "بريّة"))[49]، ومما يُلاحظ في ما سطره الشيخ مكارم أن مقبوليته لهذه الآراء الثلاث كانت مجملة وعلى السواء، ولم يرجح معنى على آخر، مع أن المعنى الأول يستقيم مع الفكر الإسلامي المُتبنّى منه، خلافا للمعنى الثاني الذي سيُخرّج به إبليس عن معنى البريّة، ومن ثمّ سيخرج من دائرة "شرّ البريّة" في قوله عز وجل: ﴿**أولئك هم شرّ البريّة**﴾ البينة: 6. وهذا مستبعد بحسب العقيدة الإسلامية، وكذلك المعنى الثالث الذي سيشمل الملائكة بالخير والشر (خير البرية – شر البرية) المذكورين في سورة البينة؛ لأن المعنى سيكون تعميميا، وهو منتف كذلك؛ لأن حدوث الشر وصدوره منهم ممتنع بحسب المنهل العقدي الإسلامي، فالملائكة مجبولون على طاعة ربهم وليس لديهم رغبة أو ميل خارج حدود الخير والفلاح والحق، لكن ما نلحظه ونستشفه أن هذا الترتيب للمعاني الثلاثة بهذا الشكل الذي أتى به الشيخ يشي بتفضيل المعنى الأول، فإن كان ذلك بقصدية من الشيخ مكارم الشيرازي فلا مؤاخذة عليه بعدم ترجيحه أحد المعاني على غيره.

وكان للمفسر المعاصر محمد علي الصابوني اشتغال بياني ضمن تفسيره المعروف بـ (صفوة التفاسير)، إذ يذكر فوائدَ بلاغية للمفردات القرآنية اعتمادا على قدرته اللغوية والبيانية في الكشف عن المعنى المراد من ذلك، مثلا يفسّر مفردة (فاجتنبوه) الواردة في سياق تحريم (الخمر) فيقول: ((التعبير بقوله تعالى: "فاجتنبوه"، نص في التحريم، ولكنه أبلغ في النهي والتحريم من لفظ "حرّم" لأن معناه البعد عنه بالكلية، فهو مثل قوله تعالى: ﴿**ولا تقربوا الزنى**﴾ الإسراء: 32؛ لأن القرب منه إذا كان حراما، فيكون الفعل محرما من باب أولى، وكذلك هنا))[50]، فهو هنا وإن عرض للمفردة بيانيا إلا أنه اعتمد على الدلالة المعجمية للمفردة وهي الاجتناب أي الابتعاد؛ زيادة في التحريم والنهي، وبيانا لشدّة مبغوضية تعاطي الخمر في الدين الإسلامي ومبالغة في حرمة تناوله، ومثل ذلك في قوله تعالى: ﴿**أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا**﴾ الأنعام: 114. إذ فسّر مفردة (حكم) مبينا اختلافها عن مفردة (الحاكم)، قال: ((الحكم أبلغ من الحاكم وأدل على الرسوخ، لأنه لا يطلق إلّا على العادل، وعلى من تكرر منه الحَكَم

بخلاف الحاكم))[51]، وهو لم يأتِ بشيء جديد في هذا التوجيه، بل اتبع ما ذكره السابقون[52]، وهذا يعني أن مقبولية الشيخ الصابوني تدور في فلك مقبولية التراثيين في توجيه معاني المفردات القرآنية.

ولو تصفحنا تفسير الشيخ السبحاني لوجدنا له اشتغالات بيانية عديدة، مثلا عندما يريد بيان معنى لفظة (أمة) في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا**﴾ النحل: 120. وقوله تعالى: ﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم**﴾ الأنعام: 38، فإنه يقول: ((ويمكن أن يقال: إن ما ألمحنا إليه من موارد الاستعمال للفظ (الأمة) ليست معاني مختلفة، حتى يتصوّر أن اللفظ وُضع عليها بأوضاع متعددة، ولكن كلها مصاديق لمعنى وسيع وضع عليه اللفظ (الأمة) وهو كل اجتماع من الانسان وغيره من الحيوان، يجمعهم أمر ما من الزمان والمكان والدين والعنصر وغيرها))[53]، وهو بهذا قد عمم من دلالة المفردة المعجمية التي تدل على ((كل قوم نسبوا إلى شيء وأضيفوا إليه فهم أمة، وكل جيل من الناس أمة على حدة))[54]، فأي مجموعة بشرية تشترك برابط ما يمكن أن يتصفوا بالأمة، وبهذا فإن الشيخ السبحاني توسّع بدلالة هذه المفردة اتكاءً على القرآن الكريم، فإضافة إلى معناها المعجمي الدال على الجماعة البشرية المرتبطة برابط معيّن، صارت تدل على أي جماعة ذات حياة، سواء كانت بشرية أم حيوانية، وكذلك تدل على الفرد ذي الشأن العظيم؛ تعظيما له وجعله بمنزلة الجماعة مجتمعين، فالشيخ السبحاني لم يتقيّد بالدلالة المعجمية فحسب، بل كشف عن دلالة جديدة لهذه المفردة القرآنية بما هيّأه له وأتاحه النص القرآني.

وانتقال المعنى في المفردات كان له أمثلة كثيرة في اشتغالات المفسّر السبحاني، وهذا الانتقال المعنوي للألفاظ من مجال إلى آخر يتم من طريق استعمال المجاز، والمجاز ((أوجد صلة مبتكرة بين اللفظ في استعماله الحقيقي، ومعناه الجديد المنقول إليه، إلّا أن الأول ماض في طريقته اللغوية المحددة له في إرادة أصل الاستعمال المتبادر إليه في الذهن العربي، والثاني قد اجتاز حدود الاستعمال الأولي إلى أفق جديد من الإرادة الاستعمالية المتجددة التي دلّت عليها قرائن الأحوال من دون تأثير على الوضع الأول لذلك اللفظ فهو في مجاله الحقيقي، وهو غيره في معناه المجازي، إلّا أن هناك رابطة بين الأصل والفرع لابد من توافرها))[55]، ومن مصاديق اشتغالات الشيخ السبحاني التفسيرية في قوله تعالى: ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا**﴾ آل عمران: 103، إذ يقول في كلمة (الحبل) ما نصّه: ((وقد تضمّن قوله سبحانه: ﴿واعتصموا بحبل الله﴾ استعارة بليغة حيث صوّر قوم النبي كالساقطين في قعر هوّة سحيقة لا يقدرون على الخروج، وفي يد النبي حبل ألقاه في قعر تلك الهوّة يدعوهم إلى التمسك به حتى يستنقذهم من الهلكة))[56]،

فهو يذكر علاقة المشابهة بين الدلالة المعنوية للدين والدلالة الحسّية للحبل، وهذه المشابهة هي من هيّأت لهذه الاستعارة البليغة.

وفي قول الحق تعالى: ﴿**وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول**﴾ التغابن: 12، قال السيد المدرسي: ((ونقف عنا عند تعبير القرآن الكريم، فهو تارة يقول: ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾[57] وأخرى يقول: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾[58]، بإضافة فعل الأمر ﴿أطيعوا﴾، كما في هذه الآية. أو ليس العطف بالواو وحده كافيا لتأدية المعنى نفسه؟ والجواب: إن لكلا التعبيرين ظلاله الخاصة في المعنى والنفس، ولعل العطف بالواو وحدها يبيّن أن طاعة الرسول هي امتداد لطاعة الله، في حين أن العطف بها مع الفعل: ﴿**وأطيعوا**﴾ يؤكد استحالة الفصل بين طاعة الله وطاعة القيادة الرسالية))[59]، والسيد المدرسي يفسر القرآن ليكشف عن معانيه التي لا تخرج عن مجال مسبقاته الدينية المؤطرة بالعقيدة الإسلامية الإمامية، أي أنه يقرأ المعنى القرآني بحسب مقبوليته التي ترى النص المقدس نصا متسقا ومنسجما إلى حد الإعجاز في ذلك.

ويُعد الدكتور فاضل السامرائي أبرز المفسرين البيانيين المعاصرين، وهو من كبار النحويين أيضا، له دراسات قرآنية كثيرة، وقام بتأليف عدد من الدراسات في مجال التفسير البياني ليست قليلة، من أهمها (على طريق التفسير البياني)، وسبق هذا التفسير عدد من المؤلفات التي تخوض في مجال الدراسات البيانية القرآنية، فكان منها ما يهتم بالمفردة القرآنية وهو (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني)، ومنها ما يهتم في التركيب القرآني ككتابي (التعبير القرآني) و(من أسرار البيان القرآني).

والمعنى القرآني بحسب التفسير البياني يجري عبر الوقوف على المفردات تصريفا واشتقاقا وملاحظة استعمالاتها ودلالاتها ومعانيها، والوقوف على التراكيب القرآنية بحسب الإعراب وعلم المعاني والبيان والبديع لاستنتاج المعاني المقصودة[60].

ويركز الدكتور السامرائي في بيان معاني مفردات القرآن ودلالاتها من طريق النظر في دلالة المعجم، محاولا أن يعود بالمفردة القرآنية إلى الأصل الدلالي، ثم يقوم بربطها بالسياق المستعمل، مثال ذلك المفردات (الفلق – غاسق – وقب)[61] الواردات في سورة الفلق، وكذلك كانت الصيغة حاضرة بدلالتها ومعناها وكيفية ربطها بالمعنى المعجمي، ولاسيما عند حديثه عن دلالة كل من المفردات (الوسواس – الخنّاس)[62]، وكذا عند تمييزه بين الاستعمالات القرآنية لـ (عالم وعلّام وعليم)، إذ قال: ((ومن دقيق الاستعمال القرآني وطريفه أنه خصص اسم الفاعل (عالم) بعلم الغيب مفردا والشهادة مفردة [...] ولم يذكر مرة لفظ (عالم) مع الجمع. فإذا جمع الغيب أتى بـ (علّام) الدال على المبالغة والكثرة فيقول ﴿علّام الغيوب﴾. فخصص اسم الفاعل (عالم) بالمفرد. وقرن صيغة المبالغة (علّام) بالجمع فهو يقول ﴿عالم الغيب﴾ وذلك في ثلاثة عشر

موضعا. وقال ﴿علّام الغيوب﴾ في أربعة مواقع من القرآن الكريم. فناسب بين الصيغة ومتعلقها [...] أما (عليم) فإنه أطلق استعماله فلم يقيده بمعلوم معيّن بل يذكره مع جميع المعلومات [...] أو يستعمله مع الجمع أو فعل الجماعة))[63].

ويمثّل المعنى القرآني محور التعليل عند السامرائي في اختيار المفردة واستعمالها في موضع بالمقارنة مع افتراضات أخرى محتملة، وعلى هذه الطريقة قامت أغلب كتاباته، وهذه الافتراضات مرة تعتمد على القرآن الكريم نفسه، وهذا يبرز في فصوله التي كانت تحمل عناوين تعبّر عن ذلك بشكل جلي، منها مثلا ما يتعلق بتعاور الألفاظ[64]، أو ما يتعلق بالتشابه والاختلاف[65]، إذ كان السامرائي في هذه الفصول يورد المقابل سواء كان مشابها أم مختلفا من القرآن نفسه، لكنه قد يلجأ في افتراضاته للمقابل إلى تصوّره أو اقتراحه لألفاظ غير موجوده في القرآن، ليبدأ يحلل ويعلل سبب اختيار هذه المفردة الموجودة في هذا الاستعمال القرآني ولِمَ يُؤتَ بتلك المفردة التي اقترحها افتراضا بديلا عن المفردة الأصل، مثال ذلك في قوله تعالى: ﴿**من الجنة والناس**﴾ الناس: 6، إذ راح يعلل سبب المجيء بمفردة (الجنّة) دون (الجان) أو (الجن)[66]، ومثل ذلك تعليل الدكتور السامرائي مجيء ﴿**الحمد لله**﴾ في الفاتحة بدلا من مجيء (نحمد الله) أو (أحمد الله)[67]، كل ذلك من أجل بيان المعنى القرآني ودقة اختياره في كتاب الله المجيد.

لقد كان السامرائي لا يبرح عن الرجوع إلى المواضع القرآنية التي جاءت فيها تلك المفردة أو تلك العبارة؛ ليتدبر فيها ويستنتج المعنى البياني لذلك، فتفسيره لمعنى (حق القول) في قوله تعالى: ﴿**لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون**﴾ يس: 7، يقول السامرائي: ((والذي يرجح ذلك أنه لم يرد في القرآن الكريم "حق القول" إلا لهذا المعنى[68] وكذلك "حقت كلمة ربك" فإسناد الفعل "حق" إلى القول أو الكلمة لا يعني إلا ثبوت العذاب ووجوبه وذلك في ثلاثة عشر موضعا [...] وبذا يترجح ما ذكرناه))[69].

ومما كان له أثر في المعنى القرآني عند السامرائي مسألة العلاقة ما بين المبنى والمعنى، إذ كان يرى أن الحذف من الفعل في القرآن هو للدلالة على أن هذا الفعل يضم حدثا أقل، أي حذف شيء من حدثه وطرحه، فالاقتطاع من الفعل دلالة على الاقتطاع من الحدث، وهذا الحذف أو الطرح إنما يكون في مقام الاختصار ويقتضيه الإيجاز، خلافا لحالة عدم الحذف الذي يقتضيه مقام التفصيل والإطالة[70].

ويقول الدكتور السامرائي: ((مراجعة المواطن القرآنية التي ورد فيها أمثال التعبير القرآني الذي يراد تبيينه ليستخلص المعنى المقصود))[71]، ثم يقوم لاحقا بالتأمل في المادة المجموعة، فيقارن بين ثنائياتها في الذكر والحذف، أو الإيجاز والإطناب، أو التقديم والتأخير، أو التشابه والاختلاف أو غير ذلك، وقد

اشتغل في دراسة قصص القرآن في ضوء ما سلف، وقد سماه (الحشد الفني) لحضور المقارنة القوي في أوجهها المتعددة، وهي مقارنة بين التراكيب التي تعبر في القصة الواحدة عن حدث واحد، كقصة النبي آدم ومقارنته لها بين سورتي الأعراف والبقرة[72].

ويُعد السياق أو المقام ذا أهمية في مسألة الكشف عن المعنى القرآني، وهو من أهم العناصر التي يعتمد عليها الدكتور السامرائي في استنتاج المعنى البياني، إذ قال فيه ((والسياق من أهم القرائن التي تدل على المعنى))[73]، لذلك كان للسياق أو المقام اهتمام كبير في كل كتبه، حتى أطلق على أحدها عنوان (مراعاة المقام في التعبير القرآني)، وقد قال فيه: ((إن مراعاة المقام في التعبير القرآني ظاهرة بينة، فلا يكاد يخلو موضع من مواضع التعبير من مراعاة المقام. فهو أمر عام في عموم المواطن من الذكر والحذف والتقديم والتأخير، والتوكيد وعدمه، وفواصل الآي، والالتفات، واختيار لفظة على أخرى، وغير ذلك من مواطن التعبير))[74]، وهكذا يتبيّن لنا أثر السياق بجانبيه الداخلي والخارجي في إجلاء المعنى البياني للنص القرآني عند المفسرين البيانيين ممثلين بالدكتور فاضل السامرائي.

وعلى العموم كان الدكتور السامرائي في تفسيره البياني قد ارتكز على المشابهة بين الألفاظ (مفردات وتراكيب)، وكانت المقارنة سبيلا إلى تحقيق الكشف عن المعنى المراد وترجيحه على غيره، وارتكز كذلك على السياق بنوعيه: الداخلي والخارجي، أو فلنقل اعتمد على السياقين اللغوي والمقامي اعتمادا كبيرا في إيضاح المعاني البيانية، فهو يستند على قواعد اللغة العربية نحوا وصرفا وبلاغة لتعميق الصلة بالقرآن لكريم والكشف عن معاجزه وتدعيم أواصر الإيمان بسماويته.

وبناء على ما تم عرضه يمكن القول إنّ المعنى القرآني الناتج من طريق التفسير البياني يتحدد بتضافر عاملين معا، الأول اللغة العربية في نحوها وبلاغتها والمعجم، والعامل الثاني القرآن نفسه، الذي يمثل السياق الذي يضم المفردات والجمل والآيات.

ثانيا: المعنى القرآني من طريق التفسير العلمي

في البدء ينبغي أن نوضّح مسألة هامة تتعلق بالتفسير العلمي، وهي سؤال يتعلق بهذا النمط التفسيري أ هو منهج أم اتجاه، وإجابة البحث هي: التفسير العلمي منهج إن كان العلم طريقا ووسيلة للتفسير، أما إن حُمّل العلم بنظرياته وطروحاته على النص القرآني قسرا وتكلفا فهو لا يعدو أن يكون اتجاها تفسيريا بحسب ما أشره البحث في توطئة هذا الفصل، يُضاف إلى ذلك أن التفسير الذي اختص بالمجال العلمي يمكن إدراجه ضمن اتجاهات التفسير على وفق مجال الاشتغال والاهتمام، وهو ما اختاره البحث هنا.

والتفسير العلمي يعرّف بأكثر من تعريف، لكن هذه التعاريف تحوم حول مضمون واحد، منها أن التفسير العلمي هو ((توظيف كل المعارف المتاحة لحسن فهم دلالة الآية القرآنية))[75]، ويرى آخر أنه ((الكشف عن معاني الآية أو الحديث، في ضوء ما ترجحت صحته من نظريات العلوم الكونية))[76]، ويعرفه ثالث بأنه ((الآيات ذات المضامين العلمية من الزاوية العلمية، وتفسيرها تفسيرا علميا، بالاستعانة بالعلوم والمعارف والمكتشفات الحديثة في توسيع مدلولها))[77]، وتشكّل العلوم الطبيعية الكونية بؤرة الاشتغال في هذا النوع من التفسير.

ولابد من القول إنّ هنالك مفسرين اشتغلوا على التفسير العلمي انطلاقا من تخصصاتهم واهتماماتهم العلمية، واصطبغت نتاجاتهم بهذا اللون التفسيري فقط، وتوقّفت على الآيات التي فيها إمكانية للتفسير العلمي ولم تفسر كل آيات القرآن الكريم، وهؤلاء لم يسيروا بحسب ما سار عليه المفسرون الذين فسروا بمنهجية شاملة، الذين كانت لهم اشتغالات تنتمي إلى مجال التفسير العلمي منثورة في تفاسيرهم، ولم تكن تفاسيرهم متوقفة على الاتجاه العلمي فحسب، كما في تفسير الشيخ مكارم الشيرازي، الذي فسّر بعض الآيات علميا ووظفها بحسب المكتشفات العلمية الجديدة، مثلا في قوله تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ**﴾ الأعراف: 45، يرى الشيخ أن معنى (ستة أيام) مغاير للمعنى السلفي المرتكز على المعنى المعجمي وعلى المعنى العرفي القديم؛ وهذا التغيّر في المعنى إنما ترتب على ما جاء به العلم الحديث من مكتشفات ومعطيات جديدة ساهمت في تعديل أو تجديد التفسير القرآني في بعض المواضع التي يمكن للعلم أن يكون وسيلة أو منهجا أو مساهما في كشف المعنى القرآني الجديد، يقول الشيخ الشيرازي في هذا السياق: ((قبل أن تُخلق السماوات والأرض لم يكن ليل ولا نهار ليقال: خُلقت السماوات والأرض فيهما، لأن الليل والنهار ناشئان من دوران الأرض حول نفسها في مقابل الشمس. هذا مضافا إلى أن ظهور المجموعة الكونية في ستة أيام [...] يخالف العلم، لأن العلم يقول: لقد استغرق تكوّن الأرض والسماء حتى وصل إلى الوضع الحالي مليارات من السنوات والأعوام))[78]، ومن ثم فإن معنى (اليوم) في هذه الآية بحسب ما يراه الشيخ يكون بمعنى (الدورة)، أي خلق الله العالم في ست دورات[79].

مثلا الآية: ﴿**فكسونا العظم لحما**﴾ المؤمنون: 14، قال فيها الشيخ: ((إن للقرآن تعبيرا خاصا عن قضية ظهور العضلات، يقول فيه ﴿**فكسونا العظم لحما**﴾، إن اختيار (كسونا) إحدى معجزات القرآن العلمية، فقد ثبت اليوم أن العظام تظهر قبل الأنسجة اللحمية))[80]، وفي الآية: ﴿**والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسوعون**﴾ الذاريات: 47، قال الشيخ الشيرازي: ((بالرغم من أن بعض المفسرين اعتبروا ذلك بمعنى توسعة الرزق عن طريق هطول المطر وغيره، لكن يبدو أن للآية معاني بالغة الأهمية والدقة، حيث اتضح

ذلك لعلماء عصرنا الحاضر، وقد أميط اللثام عن معجزة من المعجزات العلمية للقرآن، وهي أن العالم في حال اتساع وبصورة مستمرة، وأن النجوم والمجرات والأجرام تبتعد عن بعضها بشكل سريع))[81]، وفي قوله تعالى: ﴿**ألم نجعل الأرض مهادا**﴾ النبأ: 6، ذهب الشيخ في إحدى الجهات التي طرحها لاختيار وصف الأرض بالمهاد فقال: ((ما لحركتها السريعة المنظمة ولدورانها حول الشمس وحول نفسها من أثر على حياة البشرية خاصة، بما ينجم عنها الليل والنهار والفصول الأربعة))[82]، فالعلاقة واضحة بين المهد المتصف بالحركة والأرض المتحركة حول الشمس ونفسها وأثر ذلك في نماء الحياة وسيرورتها الطبيعية، وبهذا التفسير جعل الشيخ الشيرازي للعلم الحديث دورا وإسهاما في تشكيل المعنى القرآني.

ومعاني الآيات السابقة يمكن حملها على غير ما وجه به الشيخ، فضلا عن أن المفسرين القدماء قرأوها بخلاف هذا الطرح المعاصر، وهذا يعني أن المعنى القرآني في هذه الحيثيات عند الشيخ قد تشكّل على وفق معطيات العلم الحديث وفي ضوء مقبوليته، وهي مقبولية تلقي بظلالها على أية عملية تفسيرية، وتحاول جعلها متوافقة مع الإيمان المطلق بكتاب الله سبحانه.

والشيخ وهبة الزحيلي التفت إلى بعض الآيات وفسرها علميا، مثلا عند اشتغاله على قوله تعالى: ﴿**فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾ **الأنعام: 96**، قال: ((ومن المعروف فلكيا أن للأرض دورتين دورة تتم في أربع وعشرين ساعة لحساب الأيام، ودورة تتم في سنة ضمن فصول أربعة لحساب السنة))[83]، وفي قوله تعالى: ﴿**الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها**﴾ الرعد: 2، قال: ((فيهن تقوم بقدرة الله وحفظه وتقوم في القضاء بإبقائه تعالى حتى ولو قيل بتوازن قانون الجاذبية بين النجوم والكواكب فإن ذلك بخلق الله))[84]، وفي قوله تعالى: ﴿**ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين**﴾ السجدة: 8، قال الشيخ الزحيلي: ((يتكون الإنسان من امتزاج نطفة الرجل بماء المرأة الذي في البويضة التي تتلقح بنطفة الرجل فيتم التوالد والتناسل))[85]، وغير ذلك من التفسيرات التي خلع عليها من الكشوفات العلمية التي تنتمي إلى مجال العلوم الطبيعية.

ويمكن القول إنّ التفسير العلمي لا يتوقف على العلوم الطبيعية في بيان معنى النص القرآني وقصديته ومراده، بل يشمل العلوم الاجتماعية التي كان لها وجود بارز في الاشتغالات التفسيرية المعاصرة، وهذا ما يسمى بالتفسير الاجتماعي، وهو ((التفسير الذي يسعى إلى إثبات صلاحية القرآن لهداية البشر كافة في العصر الجديد من خلال كشف المفاهيم والدلالات الإرشادية للقرآن في جميع المسائل المرتبطة بالحياة الإنسانية [...] وإيجاد الأسلوب الأمثل لمعالجة كافة المشاكل الاجتماعية بالاستناد إلى مدلولات ومفاهيم الآيات القرآنية))[86]، فهذا التفسير يهدف إلى التوفيق بين النص القرآني والمعطيات الاجتماعية والقضايا

الإنسانية المعاصرة، وهذا يتم عبر عرض الإرشادات القرآنية عرضا عصريا يتماشى مع المعطيات الاجتماعية المعاصرة، فيثبت صلاح القرآن للمجتمع البشري وتمشية شؤونه وقيادته للحياة[87]، ولتوضيح ذلك نأخذ مثلا من تفسير الشيخ مكارم الشيرازي لتفسير قوله تعالى: ﴿**لا إكراه في الدين**﴾ البقرة: 256، إذ يقول: ((وليست هناك حاجة للإجبار والإكراه [...] ولما كان الدين يهتم بروح الإنسان وفكره ومبني على أساس من الإيمان واليقين، فليس له إلا طريق المنطق والاستدلال وجملة: "لا إكراه في الدين" في الواقع إشارة إلى هذا المعنى))[88]، فالشيخ الشيرازي يطرح قضية الحرية في الدين، ويرى أن العقيدة والدين مسألة اختيار قلبي قائم على البرهان والمنطق، وفي قوله تعالى: ﴿**ولقد آتينا داوود وسليمان علما**﴾ النمل: 15، يقول الشيخ: ((خلافا لما يتصوره أصحاب النظرة الضيقة من أن الدين مجموعة من النصائح والمواعظ، أو المسائل الخاصة بالحياة الشخصية للإنسان [...] بل هو مجموعة من القوانين والمناهج الحيوية التي تستوعب جميع مسائل حياة الإنسان وخاصة المسائل الاجتماعية))[89]، فالشيخ في هذا النمط من التفسير يحاول أن يجعل النص الديني نصا قادرا على أن يقود الحياة ويتماشى مع تطورها بكافة تعقيداتها، انطلاقا من خلفيته العقدية ومتبنياته الفكرية في الدين الإسلامي وقرآنه الخالد، ويرى الباحث أن هذا النمط من التفسير لا يشكل أهمية معتبرة في كشف المعنى القرآني، بل هو لا يعدو أن يكون توجيها للنص القرآني وأهدافه، ليجعله متلائما مع متطلبات العصر الإنسانية ومتفاعلا مع تطلعات الحضارة العالمية الجديدة.

أما المفسرون المعاصرون الذين اهتموا بالتفسير العلمي وأوقفوا اشتغالاتهم التفسيرية عليه فهم كُثُر، ومن أبرزهم هو الدكتور الجيولوجي المصري زغلول النجار، وظهر ذلك في موسوعته "تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم"، وقد اشتغل الدكتور النجار في تفسيره العلمي على آية رقم (5) في سورة الحج: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾، وعرض في تفسير الآية محطات أربع، الأولى علاقة آدم بالتراب وخلقه منه، وعلاقة الإنسان بالتراب وانتقال عناصره مع الطعام إلى تشكل الجسد منها، والثانية تكلم عن ﴿ثم من نطفة﴾، وعلاقة اللغة بالعلم عبر دلالة "ثم" التي معها يكون الزمن أطول فهي للترتيب بتراخٍ يقتضي تأخرا إما بالمرتبة أو الذات أو الوضع، وعرض لمعنى "النطفة" لغة فقال هي الماء القليل، الذي يعادل قطرة أو بعض من القطرات، ثم راح يعتمد على الأحاديث النبوية في توجيه النص القرآني وجعله متوائما مع منجزات العلوم الحياتية الحديثة، وفعل مثل هذا مع المرحلتين التاليتين الثالثة

والرابعة، وراح يتابع تحولات الجنين عبر ما وفرته الأبحاث العلمية والمكتشفات الجديدة، ثم يحاول أن يجعلها متوازية مع استعمالات حروف العطف العربية المستعملة في الآية هذه، وكذلك توجيه المعاني اللغوية للمفردات القرآنية (نطفة) و(مضغة) و(مخلّقة)، معززا ذلك بصور ورسومات توضيحية[90].

ومن المشتغلين البارزين في مجال التفسير العلمي الدكتور محمد راتب النابلسي، وهو مفسر علمي سوري معاصر ألف موسوعة بعنوان "موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة"، وقد تطرق لتفسير الآيات التي تتكلم عن الجنين وأطواره التكوينية، وهي آيات موزعة على أكثر من سورة في القرآن، ثلاث آيات في سورة (المؤمنون) من الآية رقم (12) إلى الآية رقم (14): ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**﴾، وواشج في تفسير هذه الآيات بين اللغة والعلم الإحيائي في مسألة خلق الجنين، وذهب الدكتور النابلسي إلى أن (القرار المكين) يراد به (الرحم)، وعرج إلى القواعد النحوية المتعلقة بحروف العطف في هذه الآيات، فوجدها متوائمة مع مخرجات العلم الحديث في خلق الجنين وأطواره التي يمر بها وزمنه المناسب، فالفاء تعطف للترتيب والتعقيب، أما "ثم" فهي عطف ترتيب بتراخٍ، وهما وُضعا في مواقعهما المناسبة في الآيات الثلاث، فالفاء ناسب العطف بها تحوّل الجنين من علقة إلى مضغة، وتحوّله من مضغة إلى عظام، فإكسائه باللحم، لكن تحوّل النطفة إلى علقة عطفها بـ "ثم" لمناسبتها التراخي الوقت الذي يفوق وقت تحولات المراحل التي جاء العطف معها بالفاء، ولم يتوقف عند الآيات السابقة في هذه المسألة، بل ضم إليها عدد من الآيات الموزعة على عدد من السور، وهي آية رقم (2) في سورة الإنسان: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ**﴾، وآية رقم (53) في سورة فصلت: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾، وجزء من آية رقم (6) في سورة الزمر: ﴿**يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ**﴾، وثلاث آيات في سورة القيامة من آية رقم (36) إلى آية رقم (38): ﴿**أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ**﴾، وخمس آيات في سورة عبس من آية رقم (17) إلى آية رقم (21): ﴿**قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ**﴾، وعلل الدكتور محمد النابلسي وصف القرآن للرحم بـ (القرار المكين) بكلام مفصل اعتمد فيه على المكتشفات العلمية في بيولوجية الإنسان ولا سيما المرآة، معرجا الحديث عن أغشية الجنين وعلاقتها بالظلمات الثلاث[91].

وما سطره الباحث في هذه النقطة يدل على أن المعنى القرآني بحسب هذا النوع من التفسير يتشكّل على وفق معطيات العلم الحديث ومنجزاته وفي ضوء مقبولية المفسّر، التي تلقي بظلالها على أي عملية تفسيرية وتحاول جعلها متوافقة مع الإيمان المطلق بكتاب الله سبحانه، ووجدنا أن الاتجاه في بعض الموضوعات له الحاكمية على المنهج في توجيه المعنى القرآني وقراءته، وأن تنوّع المناهج لا يغني عن الاتجاه شيئا في الأغلب.

الخاتمة

وصلت السيرورة البحثية إلى منتهاها وختامها، بعد أن اشتغلت على المعنى القرآني عند المفسرين المعاصرين في ضوء الاتجاهات المحكومة بمقبولية المسبقات المذهبية ومجالات التخصص والاهتمام، وتوصّل البحث إلى عدد من النتائج، وهي بحسب الآتي:

– المعنى القرآني بحسب المذهب الديني العقدي أو الفقهي يتشكّل تماشيا مع المسبقات التي تقود عملية القراءة التفسيرية، فآيات العقيدة والفقه تكون معانيهما متساوقة مع مسلك المفسر المذهبي، ومن ثم حصول قراءة غير موضوعية تصل إلى أقصى درجات الأدلجة الفكرية المتحيّزة، والمفسرون المعاصرون لم يحيدوا عن أسلافهم التراثيين الذين ظلوا أوفياء لاتجاهاتهم العقدية والفقهية، وقرأوا المعنى القرآني وفهموه في ضوء مقبولياتهم المذهبية بمعزل عن المنهج الذي اتخذوه سبيلا وساروا عليه.

– المعنى القرآني بحسب التفسير البياني يتحدد بتضافر عاملين: الأول اللغة العربية في نحوها وبلاغتها ومعجمها، وهنا يرتكز المعنى على المشابهة بين الألفاظ (مفردات وتراكيب)، عبر المقارنة فيما بينها سبيلا إلى تحقيق الكشف عن المعنى وترجيحه على غيره، ويرتكز كذلك على السياق بنوعيه الداخلي – أي القرآن نفسه – والسياق الخارجي ونعني به المقام.

– المعنى القرآني عند بعض المفسرين المعاصرين يتحدد تماشيا مع منجزات العلوم الحديثة ومعطياتها الجديدة، كل ذلك يجري في ضوء مقبولية المفسّر التي تلقي بظلالها لجعل المعنى القرآني متلائما مع ما تراه العلوم التجريبية.

– إن العامل العقدي الذي يحمله المفسر المعاصر شكّل أهم عامل محدد للمعنى القرآني، إذ كانت له سطوة كبيرة وهيمنة طاغية على العوامل الأخرى، وهو ما يعني أن الانتماء الديني يتمتع بالتأثير الأكبر في صياغة المعنى القرآني، ويمثل العامل الأقوى في عملية تشكيل معاني النصوص

القرآنية، وذلك بوصفه اتجاها قبليا أو مسبقا، يعمل على رسم دلالات المفردات والتراكيب والنصوص بحسب ما يخدم ذلك التوجه ويعززه في وجه الاتجاهات الأخرى المناهضة.

الهوامش:

---

[1]. الخصائص: 1/ 35.

[2]. شذى العرف في فن الصرف: 13.

[3]. جواهر البلاغة: 3.

[4]. دور الكلمة في اللغة: 3.

[5]. ينظر: المصدر نفسه: 62.

[6]. كتاب العين: 2/ 253، مادة (عني).

[7]. علم الدلالة دراسة نظرية تطبيقية: 16 – 17.

[8]. كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 2/ 1600.

[9]. معجم التعريفات:185.

[10]. ينظر: المعنى اللغوي: 64 – 65.

[11]. المعنى بين اللسانيات والعلوم المعرفية وتحليل الخطاب(بحث): 485.

[12]. أثر العناصر غير اللغوية في صناعة المعنى: 22.

[13]. إشكالية المعنى في الشعر العربي الحديث (دراسة في المتن السيّابي): 21.

[14]. دراسات في مناهج التفسير: 60.

[15]. ينظر: المصدر نفسه: 58.

[16]. ينظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر: ج1/ 53، 183، 281، 357.

[17]. الموقع الرسمي للشيخ عبد العزيز بن باز: https://binbaz.org.sa تفسير قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾.

[18]. صفوة التفاسير: 2/ 211.

[19]. التفسير المنير: 16/ 180.

[20]. معارج التفكر ودقائق التدبر: 2/ 541.

[21]. الإلهيات: 333.

[22]. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: 4/ 325.

[23]. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: 6/ 230.

[24]. ينظر: أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير: 1/ 644.

[25]. ينظر: تفسير القرآن الكريم (المائدة): 2/ 51.

[26]. تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 3/ 143.

[27]. المصدر نفسه: 3/ 143.

[28]. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: 3/ 462.

[29]. مفاهيم القرآن: 10/ 116.

[30]. تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن: 7/ 352.

[31] . ينظر: أصول التفسير ومناهجه: 102.

[32]. تفسير الشعراوي – الخواطر: 5/ 2955.

[33]. المصدر نفسه: 5/ 2955.

[34]. تفسير القرآن الكريم (المائدة): 91/1.

[35]. الدر المنثور في التفسير بالمأثور: 3/ 29.

[36]. الوضوء على ضوء الكتاب والسنة: 27.

[37]. المصدر نفسه: 30.

[38]. ينظر المصدر نفسه: 31 – 32.

[39]. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: 3/ 368.

[40]. تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن: 3/ 163.

[41]. تفسير الشعراوي – خواطر: 5/ 2951.

[42]. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: 1/ 538.

[43]. ينظر: التفسير البياني وقفات على تاريخه ومنهجه (بحث): 413.

[44]. المناهج التفسيرية في علوم القرآن: 145.

[45] . على طريق التفسير البياني: 1/ 7.

[46] . دراسات في تفسير النص القرآني: 151.

[47]. على طريق التفسير البياني: 1/ 8 – 13.

[48]. المناهج التفسيرية في علوم القرآن: 145.

[49] . نفحات القرآن: 9/ 195.

[50] . صفوة التفاسير: 1/ 338.

[51] . المصدر نفسه: 1/ 387.

[52] . ينظر: البحر المحيط: 4/ 627.

[53] . مفاهيم القرآن: 3/ 187.

[54] . معجم مقاييس اللغة: 1/ 27، (أم).

[55] . أصول البيان العربي في ضوء القرآن الكريم: 42.

[56] . مفاهيم القرآن: 7/ 27.

[57]. الأنفال: 46.

[58]. النساء: 59.

[59]. من هدى القرآن: 11/ 45.

[60]. ينظر: على طريق التفسير البياني: 1/ 9 و 12.

[61]. ينظر: المصدر نفسه: 1/ 29 و 34 و 35.

(62). ينظر: المصدر نفسه: 1/ 49 – 53.

(63). ينظر: المصدر نفسه: 1/ 240 – 241.

(64). ينظر: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: 109.

(65). ينظر: من أسرار البيان القرآني: 140.

(66). ينظر: على طريق التفسير البياني: 1/ 55.

(67). ينظر: لمسات بيانية في نصوص التنزيل: 13.

(68). وهو ثبوت العذاب ووجوبه.

(69). على طريق التفسير البياني: 2/ 18 – 19.

(70). ينظر: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: 9.

(71). على طريق التفسير البياني: 1/ 12.

(72). ينظر: التعبير القرآني: 283 وما بعد.

(73). على طريق التفسير البياني: 1/ 12.

(74). مراعاة المقام في التعبير القرآني: 5.

(75). من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: 35.

(76). موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة آيات الله في الآفاق: 18.

(77). البيان في إعجاز القرآن: 267.

(78). الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: 4/ 322.

(79). ينظر: المصدر نفسه: 4/ 323 – 324.

(80). تفسير النفحات: 2/ 16.

(81). المصدر نفسه: 2/ 136.

(82). الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: 15/ 15.

(83). التفسير المنير: 7/ 306.

(84). المصدر نفسه: 13/ 103.

(85). المصدر نفسه: 21/ 191.

(86). العلامة الشيخ محمد عبده والاتجاه الاجتماعي في تفسير المنار (مقال)، معصومة حسيني ميرصفي. منشور في موقع التقريب على الرابط: https://www.taghribnews.com/ar/article/75933

(87). ينظر: المفسرون حياتهم ومنهجهم: 71.

(88). الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: 2/ 259.

(89). المصدر نفسه: 12/ 29.

(90). ينظر: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم: 2/ 157 – 165.

(91). ينظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة آيات الله في الإنسان: 89 – 101.

المصادر والمراجع

* **القرآن الكريم.**

* اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، د. فهد بن عبد الرحمن الرومي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط3، 1997م.

* أثر العناصر غير اللغوية في صناعة المعنى، رشيد بلحبيب، مجلة اللسان العربي، مكتب تنسيق التعريب، المغرب، العدد 49 – يونيو 1999م.

* إشكالية المعنى في الشعر العربي الحديث (دراسة في المتن السيّابي)، يحيى شايف ناشر الجوبعي، أطروحة دكتوراه في كلية التربية – جامعة الموصل – العراق، 2003م.

* أصول التفسير ومناهجه، د. فهد بن عبد الرحمن الرومي، مكتبة فهد الوطنية – الرياض، ط3 – 2017م.

* أصول البيان العربي في ضوء القرآن الكريم، د. محمد حسين الصغير، دار المؤرخ العربي – بيروت، ط1 – 1999م.

* الإلهيات، الشيخ جعفر السبحاني، الدار الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان، ط1 – 1989م.

* الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، العلامة المفسر آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت، (د.ط) – 2013م.

* أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، جابر بن موسى أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة، ط5 – 2003م.

* البحر المحيط، محمد بن يوسف أبو حيّان الأندلسي (ت 745هـ)، بعناية: صدقي محمد جميل العطار، الناشر: دار الفكر – بيروت، (د.ط) – 2000م.

* بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، شركة العاتك لصناعة الكتاب – القاهرة، ط2 – 2006م.

* البيان في إعجاز القرآن، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار عمار – الأردن، ط1 – 1421هـ.

* التعبير القرآني، د. فاضل السامرائي، دار عمار – عمان – الأردن، ط4 – 2006م.

* تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم، زغلول راغب النجار، مكتبة الشروق الدولية – القاهرة، ط1 – 1428هـ.

* تفسير الشعراوي – الخواطر، الشيخ محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم – مصر، (د.ط) – 1997م.

* التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة مصطفى الزحيلي، الناشر: دار الفكر – دمشق، دار الفكر المعاصر – بيروت، ط1 – ١٩٩١م.

* تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، الشيخ محمد الأمين الهرري الشافعي (ت1441هـ)، إشراف ومراجعة: د. هاشم محمد علي بن حسين مهدي، دار طوق النجاة – مكة المكرمة، (د.ط) – (د.ت).

* تفسير الشعراوي – خواطر، الشيخ محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم – مصر، (د.ط) – 1997م.

* التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة مصطفى الزحيلي، الناشر: دار الفكر – دمشق، دار الفكر المعاصر – بيروت، ط1 – ١٩٩١م.

* تفسير القرآن الكريم (المائدة)، الشيخ محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع – السعودية، ط2 – 1435هـ.

* تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه، محمد علي طه الدرة، دار ابن كثير – دمشق، ط1 – 2009م.

* تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، الشيخ محمد الأمين الهرري الشافعي (ت1441هـ)، إشراف ومراجعة: د. هاشم محمد علي بن حسين مهدي، دار طوق النجاة – مكة المكرمة، (د.ط) – (د.ت).

* التفسير البياني وقفات على تاريخه ومنهجه (بحث)، م.م. فارعة عبد العزيز علي، وقائع المؤتمر العلمي الدولي الرابع – مؤسسة المنارة للتنمية والتعليم – جامعة نولج أربيل، مجلة كلية التربية للبنات، عدد خاص – 2023م.

* الدر المنثور في التفسير بالمأثور، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، الناشر: دار الفكر – بيروت، (د.ط) – (د.ت).

* دراسات في تفسير النص القرآني، الجزء الأول، أبحاث في مناهج التفسير لمجموعة من الباحثين، ترجمة: فريق الترجمة في مركز الحضارة، بيروت، ط2، 2010م.

* دراسات في مناهج التفسير، إعداد: مركز نون للتأليف والترجمة، نشر: جمعية المعارف الإسلامية الثقافية – بيروت، ط1 – 2012م.

* دور الكلمة في اللغة، استيفن أولمان، ترجمة: د. كمال بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، (د ط)، 1975م.

* الخصائص، أبو الفتح عثمان ابن جني (ت392هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، الهيئة العامة لقصور الثقافة – القاهرة، (د ط) – 2006م.

* جواهر البلاغة، السيد أحمد الهاشمي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، (د ط)، 2000م.

* شذى العرف في فن الصرف، أحمد بن محمد بن أحمد الحملاوي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 2000م.

* على طريق التفسير البياني، الدكتور فاضل السامرائي، النشر العلمي – جامعة الشارقة – الإمارات العربية المتحدة، (د.ط) – 2002م.
* علم الدلالة دراسة نظرية تطبيقية، د. فريد عوض، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 1426هـ – 2005م.
* لمسات بيانية في نصوص التنزيل، د. فاضل السامرائي، دار عمار – عمان – الأردن، ط3 – 2003م.
* كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد بن علي القاضي الحنفي التهانوي (ت1158هـ)، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناتي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 1996م.
* كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت170هـ)، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، (د ط)، (د ت).
* مراعاة المقام في التعبير القرآني، د. فاضل السامرائي، دار ابن كثير – بيروت، ط2 – 2019م.
* معجم التعريفات، علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني (ت816هـ)، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).
* من هدى القرآن، السيد محمد تقي المدرسي، دار القارئ – بيروت، ط2 – 2008م.
* من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، زغلول النجار، دار المعرفة – بيروت، ط1 – (د.ت).
* موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة آيات الله في الآفاق، محمد راتب النابلسي، مؤسسة الفرسان – الأردن، ط1 – 1435هـ.
* مفاهيم القرآن، الشيخ جعفر السبحاني، مؤسسة التاريخ العربي – بيروت، ط1 – 2010م.
* من أسرار البيان القرآني: د. فاضل السامرائي، دار الفكر للطباعة والنشر، ط1 – 2009م.
* معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت 395هـ)، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الإعلام الإسلامي – قم، (د.ط) – 1984م.
* موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة آيات الله في الإنسان، الدكتور محمد راتب النابلسي، مؤسسة الفرسان – الأردن، ط1 – 1435هـ.
* المعنى اللغوي، د. محمد حسن جبل، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 1426هـ – 2005م.
* المعنى بين اللسانيات والعلوم المعرفية وتحليل الخطاب(بحث)، أ. حمراوي محمد، مجلة اللغة العربية، الجزائر، المجلد(24)، العدد(1)، الفصل الأول من سنة 2022م.
* صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، ط1 – 1997م.
* المفسرون حياتهم ومنهجهم، السيد محمد علي إيازي، مؤسسة الطباعة والنشر – طهران، ط1 – 1386 هـ.ش – 1428هـ.ق.

* معارج التفكر ودقائق التدبر، عبد الرحمن بن حنبكة الميداني، ط1 – 2000م.
* المناهج التفسيرية في علوم القرآن، الشيخ جعفر السبحاني، مؤسسة الإمام الصادق (ع)، قم – إيران، (د.ط)، 1409هـ.
* نفحات القرآن، أسلوب جديد في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، الشيخ مكارم الشيرازي مع مجموعة من الفضلاء، (د.ط) – (د.ت).
* الوضوء على ضوء الكتاب والسنة، الفقيه المحقق جعفر السبحاني التبريزي، مؤسسة الإمام الصادق (ع) – ايران، ط2 – 1430هـ.

المواقع الالكترونية:

* https://www.taghribnews.com/ar/article/75933
* https://binbaz.org.sa/

المستخلص باللغة الانكليزية

Abstract

This research addresses the issue of Qur'anic meaning as understood by contemporary exegetes. It explores how their religious and epistemological orientations influence the shaping of that meaning. The study is divided into two main sections: the first focuses on the Qur'anic meaning as influenced by religious sectarianism, demonstrating that the exegete's doctrinal presuppositions and jurisprudential commitments exert significant authority over the religious text and play a major role in shaping its meaning accordingly. The second section examines how the Qur'anic meaning is formulated in light of the exegete's fields of engagement and interest. The first subsection discusses how rhetorical and linguistic exegesis contributes to meaning formation, while the second subsection explores the impact of modern natural sciences on shaping and directing Qur'anic meaning in accordance with recent scientific discoveries.